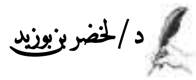
Issn:2572-0023

أوائل البربر في الصحراء الوسطى بين 3000 و1000 ق.م


د/لخضر بن بوزيد
جامعة محمد خيضر -بسكرة-
lakhdar.benbouzid@gmail.com

الملخص:

خلال المرحلة الرعوية كانت المجتمعات الصحراوية متنوعة على الصعيد الاثني والثقافي، ويبدو أن المجموعات السوداء كانت تمثل الأغلبية في المنطقة خلال المراحل القديمة والوسطى من الحياة الرعوية، ولكن لاحقا فيما بين 3000 و2000 ق.م قدمت مجموعات جديدة إلى الصحراء الوسطى وهؤلاء هم أوائل البربر الذين استفادوا من الظروف المناخية الرطبة التي كانت لا تزال تمر بها الصحراء قبل أن تتحول إلى الجفاف. ومن المرجح أن هذه المجموعات قد قدمت من الشرق ومن الشمال وانتشرت في كامل منطقة الطاسيلي ناجر، حيث تركت أعمالها الفنية الجميلة التي تعد من أفضل الأعمال الفنية التي تمثل النيوليتي في العالم.

الكلمات المفتاحية: أوائل البربر، شمال إفريقيا، النيوليتي، الصحراء الوسطى.

Résumé:

Au cours de la période pastorale les sociétés du Sahara apparaissent très diversifié sur le plan ethnique et culturel, le peuplement semble être dominé par des groupes noirs dans la période pastorale ancienne et moyenne. Plus tard environ 2000 à 3000 avant JC, un nouveau peuple envahissait le Sahara central. Ce sont les Prot berbères qui ont auront bénéficié des derniers millénaires humides qui verdissent le Sahara. Ces groupes originaires de l'est et du nord sont répandus partout dans le Tassili N'Ajjer, où ils ont laissé de magnifiques peintures, ces peintures sont parmi les plus beaux que nous connaissons du néolithique à travers le monde.

Les mots clés:

Les premiers berbères, Afrique du nord, Néolithique ,Désert central

مقدمة

لقد دخل سكان الصحراء الوسطى مبكراً في النيوليتي ففي حوالي 8000 ق.م تمكن الصيادون– الجامعون من انتتاج الفخار وربما حاولوا ممارسة نوعاً من الزراعة البدائية، وفي تلك الفترة كانوا يعبرون عن أفكارهم بواسطة الرسوم والنقوش الصخرية حيث تركوا أعمالا فنية على جدران الملاجئ الصخرية، وهذه الأعمال الفنية تعتبر مصدر هاما تؤرخ لحياتهم وحضارتهم، وقد استطاع الباحثون تقسيم مشاهد الفن الصخري بشكل عام إلى عدة مراحل، فالمرحلة القديمة منه سميت باسم "مرحلة الجاموس العتيق، وهي متزامنة تقريبا مع مرحلة الرؤوس المستديرة التي تتمثل في رسوم بديعة لأشخاص غالبا ما تكون رؤوسهم مستديرة ونجد في رسومهم الكثير من السحر والخيال والأسطورة وهم من الزنوج مثلما تظهرهم الصور. وبعد ذلك ظهرت لوحات فنية تعبر عن الحياة الرعوية وتعرف هذه المرحلة أيضا باسم "مرحلة البقريات " لأن الابقار تظهر في معظم مشاهدها في حين تختفي رسوم ونقوش الصيادين وتحل محلها صور الحياة اليومية للرعاة، وتعتبر هذه المرحلة هي الاطول زمنا فهي تمتد من حوالي 6000 ق.م وتتواصل الى 1000 ق.م أو أكثر، والملاحظ في هذه الفترة هو تواجد السود والملونين أكثر إلى جانب البيض ولكن تقل نسبة العرق الأبيض في المراحل القديمة وتزداد في المرحلة الحديثة. وتُقدم لنا مشاهد الفن الصخري في الصحراء الوسطى خاصة في الطاسيلي معلومات هامة عن المجموعات البشرية التي عاشت في المنطقة، فمن خلال المشاهد يمكن القول أن أعراق مختلفة قد عاشت هناك فمنهم الزنوج والسود والملونين والبيض ولا نعلم إذا ما تواجدت تلك المجموعات مع بعضها البعض أم لا، لكن على الارجح فإن مشاهد الزنوج قديمة جداً، أما العرق الابيض فيشكل نسبة كبيرة في المرحلة الحديثة والمتأخرة من الحياة الرعوية. وما يهمنا في هذه الدراسة هو المجموعات البيضاء وسبب تواجده في هذه المنطقة البعيدة في وقت مبكر، ولذلك نحتاج الى الاجابة على عدة تساؤلاتمنها: من هي هذه الشعوب؟ ومن أين جاءت؟ وما علاقتهم بأوائل الليبيون–البربر في شمال افريقيا؟

أولا- المجموعات البشرية في المرحلة الرعوية القديمة والوسطى

بدأ استئناس الابقار مبكراً في الصحراء الوسطى فقد تم تأريخ الأبقار المستأنسة في ملجأ "وان موهيجاج" جنوب ليبيا بحوالي 5400 قبل الميلاد [1] وفي ملجأ "تين تورها" بنفس المنطقة ب 6470 ق.م و6060 ق.م [2]، ومن الممكن أن يكون الاستئناس أقدم من ذلك، فلعل الحياة الرعوية قد بدأت بشكل متزامن مع الأطوار الأخيرة لمرحلة الجاموس العتيق والرؤوس المستديرة، فقد أرخت بعض رسوم الرؤوس المستديرة في ملجأ "وان تلوكلت" في تادرارت أكاكوس بحوالي 6754±29 قبل الحاضر مما يعني أنها متزامنة مع رسوم مرحلة البقريات [3]. ولكن بشكل عام يمكن اعتبار الألف السادسة هي الفترة التي بدأت فيها الحياة الرعوية واستمرت لعدة آلاف من السنين لكنها انقطعت عدة مرات بسبب الجفاف، وتبعا لذلك فقد قسمت إلى ثلاثة مراحل هي: الحياة الرعوية القديمة، والوسطى، والحديثة، وكل مرحلة من هذه المراحل تمثلها حضارات وشعوب عديدة كل منها ترك بصماته الحضارية التي كان أكثر بروزا في الفن الصخري.

أما بالنسبة للمرحلة القديمة فقد شهدت تواجد كبير للزنوج بينما كانت المجموعات البيضاء قليلة وربما ظلت تعتمد على الصيد وعاشت منفصلة عن الزنوج، والكثير من أولئك الزنوج تعود أصولهم إلى جنوب وادي النيل فزخارف الفخار تدل على القرابة مع المجموعات الزنجية النيلية، ويتميز هؤلاء الزنوج بكونهم من عرق غليظ حيث أفراده يتميزون بالفك البارز وهم غلاظ الأبدان وعضلاتهم مفتولة. بينما في المرحلة الرعوية الوسطى عاشت أكثرية من السود والملونين من ذوي البشرة السوداء والنحاسية، وهؤلاء يشبهون كثيرا شعب الفولاني الذي يعيش اليوم في غرب إفريقيا مثلما تدل على ذلك صورهم في الفن الصخري، والصور التي تعود إليهم تكثر بها مشاهد الحياة اليومية والمشاهد الأسطورية والسحرية، ونشير هنا إلى أن المرحلة الرعوية الوسطى هي الأطول زمنا فقد استمرت إلى نهاية الألف الثالثة قبل الميلاد.

ثانيا- التغيرات المناخية والوجود البشري في نهاية الألف الثالثة قبل الميلاد

لقد شهدت الفترة التي انتهى بها النيوليتي جفافا كبيراً أدى إلى هجرة الزنوج والسود الذين كانوا يشكلون التركيبة السكانية الأساسية في الصحراء خلال النيوليتي، واتجه هؤلاء نحو المناطق الرطبة في الجنوب وصولا إلى بيئة السافانا والمناطق شبه الاستوائية. ويبدوا أن مجموعات كبيرة منهم قد اتجهت نحو وادي النيل حيث تأثرت بهم ثقافة "كرمة" في السودان كما تأثرت بهم الحضارة المصرية القديمة، بينما انحدرت مجموعات أخرى نحو حوض "التلمسي" و"التاوديني" في مالي ثم واصلت تقدمها إلى المناطق القريبة من المحيط الأطلسي التي كانت الظروف المناخية فيها أفضل حالا.

وفي هذا الإطار يذكر الباحث روبرت فاريي أن نتائج هجرة رعاة الصحراء الوسطى باتجاه الغرب والجنوب يمكن ملاحظتها في العديد من المناطق، فقد ازدهرت مراكز نيوليتية في حوالي 2000 قبل الميلاد في "شط لاميتاج" في الصحراء الغربية، وفي مناطق أخرى من مالي مثل وادي "تلمسي"، وفي موريتانيا كموقع "ظهر تشيت"، و"أدرار دهيرينة ومنطقة" الشامي"، و" أماتليش"، والساحل الموريتاني الشمالي (4). ومن جهة ثانية وكنتيجة لهجرة سكان الصحراء الوسطى إلى المناطق الرطبة في منطقة "الآير" وبحيرة تشاد والنيجر، فقد ظهرت تطورات حضارية جديدة في المنطقة حيث عثر على آثاراٌ لاستخدام النحاس وشوائبه من أجل صنع سهام وملاقط وحلقات وخواتم مع نهاية النيوليتي في "أكجوجت" بموريتانيا، أما في "أقادس" بالنيجر فقد أستخدم النحاس أولا ثم ظهر الحديد لاحقاً في حوالي 850 قبل الميلاد (5).

أ- أوائل البربر في الصحراء الوسطى

بعد عودة الأمطار عادت مجموعات جديدة إلى الصحراء لكن المجموعات القادمة هذه المرة اختلفت عن المجموعات السابقة، فلأول مرة تتجه مجموعات بيضاء قادمة من الشمال أو من الشرق وتعمر الصحراء مع بداية الالف الثانية قبل الميلاد، وغالبا ما يكون هؤلاء من أوائل البربر الذين عمرو شمال افريقيا ثم اتجهوا الى الصحراء. وهذه المجموعات لم تكن متماثلة من حيث الملامح الفيزيولوجية ولا من حيث ثقافتها وعاداتها وأساليبها الفنية مما يعني أنها قد

تكون من أصول مختلفة، وهذا واضح حيث يمكن تمييز ثلاثة مجموعات من العرق الأبيض من خلال أساليبهم الفنية التي نجدها في العديد من الملاجئ الصخرية بالطاسيلي، وهي: مجموعات "وان أميل" الذين ظهرت صورهم في ملجأ وان اميل جنوب غرب ليبيا وفي المناطق المجاورة له، مجموعات "إهرن وتظهر صورهم بالطاسيلي قرب جانت، ومجموعات تين أنويين الذين تظهر صورهم في منطقة الأكاكوس الليبية، أما تسمية "إهرن" و"تين انوين" و"وان أميل" فهي لملاجئ صخرية بالطاسيلي تكثر بها صورهم.

1-مجموعات إهرن

تنتمي هذه المجموعات إلى العرق الأبيض لكن أصولهم غير معروفة وهم ذوو بنية رقيقة وغالبا ما يكونون من عرق البحر المتوسط، يتميزون بأنف ووجه بارزين وشفاه سميكة وبجسم رشيق وأطراف رقيقة منسجمة مع الجسم، ويرتدى الرجال في الغالب غطاء طويلا أشبه ما يكون بتنورة طويلة تغطي نصف الجسم الأسفل حتى الساق، ولهم تسريحات شعر متعددة حيث يترك بعضهم شعراً طويلاً مسدولا، بينما نجد لدى آخرين شعراً قصيراً وأكثرهم كانوا ملتحين. (اللوحة رقم 01، 03)

ويمكن تميز مجموعتين منهم: الأولى وهي الأقدم تتمثل في "رعاة الأبقار" الذين يحملون العصي أو السلاح المعكوف (البوميرانغ) ولا نجد لديهم مظاهر السلاح إلا قليلا، ولهم زينات جسدية ووشم في شكل خطوط تغطى معظم الجسد، وهم يظهرون في مشاهد رعوية تخلو من الصراعات، أما المجموعة الثانية وهي من رعاة الأغنام نجدهم مسلحين بأقواس ولدى بعضهم دروعاً وخوذات ولباساً حربياً كاملا، وهم غالبا ما يسيرون في مجموعات كبيرة عكس رعاة الأبقار الذين نجدهم منفردين، وهم يتميزون أيضا بزينات جسدية مختلفة تغطى أجسادهم في شكل وشم ذي أشكال هندسية، ويظهرون في مشاهد الرسوم الصخرية منهمكين بالعمل ويتميزون بالحركة والنشاط، والرجال لهم شعر طويل يتركونه مسدولاً في الخلف ولحى قصيرة ، وهو ما نجد أمثلة عنه في صور المعابد المصرية التي تظهر فيها صور الليبيين (6). (اللوحة

رقم 03) أما النساء فهن يظهرن أنيقات في مظهر شبيه بنساء البربر في بلاد المغرب، فالخصر نحيل وأعضاء الجسم طويلة ولهن تسريحات شعر مختلفة، ويرتدين وشاحا مزركشا ولباسا فضفاضا وقبعات أنيقة كروية الشكل، وهن يعملن إلى جانب الرجال في معظم الأعمال كنصب الخيام وحلب الأبقار وتقطيع اللحم وينتقلن عادة على ظهور الأبقار، والكثير منهن يعشن حياة أرستقراطية فلدى بعضهن خادمات. (اللوحة رقم 02).

2 –جماعات "وان أميل"

أطلق الباحث الإيطالي فابريزيوموري هذه التسمية على مجموعة من اللوحات الفنية لمجموعات بيضاء في ملاجئ بالأكاكوس وخاصة منها ملجأ "وان أميل" الذي يقع في وادي "تاشوينت" بالاكاكوس قرب الطاسيلي [7]. ويرى الكثير من الباحثين كألفرد موزيليني وجون لوكيلاك وايف ڤوتي أن هذا الأسلوب ينتمي للمرحلة الرعوية الحديثة وهو معاصر لأسلوب إهرن، وكلاهما يمثلان قبائل وشعوب ذات أصول ليبية –بربرية عاشت في نفس الفترة [8]، وقد أشار الباحث لوكلاك إلى أن مشاهد لهم قد أرخت في ملجأ" تين تابوراك" Ti-n-Taborak بالأكاكوس في 2460±70 قبل الحاضر[9].

ومن الواضح بالنسبة لنا أن مجموعات "وان أميل" هم من الليبيين مثل سكان بلاد المغرب لأنهم يشبهونهم في اللباس وفي لحاهم المدببة وبشرتهم البيضاء، ولا شك أنهم يختلفون عن بقية القبائل الليبية من الناحية الثقافية فلا نجد على رؤوسهم ريش النعام، وفي المقابل نجد لديهم خصلة شعر يحرصون على إظهارها بارزة إلى الأمام ولعلها تمثل هوية ثقافية لهم، ونشير إلى انه يمكن تمييز مجموعتين منهم الأولى تمثل رعاة الأبقار وهم الأقدم والثانية من رعاة الأغنام المتأخرين. (اللوحة رقم 03)

والجدير بالذكر أن القبائل الليبية كانت تختلف من حيث عاداتها وخصائصها الأنثروبولوجية والثقافية، وهذا ما ذكره المؤرخ هيرودوت الذي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد وعاصر هؤلاء الليبيين وترك لنا وصفا لعدد من قبائلهم، فبعضهم كانوا يحلقون شُعورهم

كاملا ويتركون خصلة شعر لتنمو، في حين يترك بعضهم الجزء الأيمن من رؤوسهم ويحلقون الأيسر [10] (اللوحة رقم 01، 03) ونشير هنا إلى أن المجموعات الليبية التي تنتمي إلى أسلوب وان أميل انتشرت في مناطق واسعة في الطاسيلي والهوقار والاكاكوس وهضبة فزان الليبية ونسدل على ذلك بالمشاهد الفنية التي تعود إليهم.

3-مجموعات تين أنويين والمجموعات الليبية الأخرى

تعتبر مجموعات تين أنويين أقرب المجموعات الصحراوية إلى البربر المتواجدين في جبال الأوراس اليوم، فمظاهرهم الفيزيولوجية والثقافية متشابهة، فهؤلاء يلبسون "البرنوس" الذي عرف به البربر منذ القدم، كما يتميزون بمظاهرهم الرقيقة وبأجسامهم الطويلة وتكاد لا تفارقهم ريشة النعام، كما أن لبعض الأشخاص ريشتين وكذلك الأمر بالنسبة للزينات الجسدية فهي تختلف حسب المراتب الاجتماعية، كما أن رسومهم تقتصر على الرجال ولا توجد صور النساء بينهم على عكس رسوم مجموعات إهرن التي تكثر فيها صور النساء.

وهم يظهرون دائما في شكل مجموعات أرستقراطية ولا نجدهم في مظاهر قتالية رغم أنهم عادة ما يكونون مسلحين بالأقواس، والجدير بالذكر أن الباحثين يعتبرونهم من "الجرامنت" الذين ظهروا في نفس الفترة أيضا، ومظهرهم يبدوا عليها الهدوء والوقار، فهم عادة ما يكونون واقفين أو يمشون في صف وأحيانا يجلسون على صخور، وقلما نجدهم في مشاهد الرعاة أو الحياة اليومية ولهم تسريحة شعر فريدة من نوعها وربما لديهم خوذات معدنية، وما يميزهم عن غيرهم من المجموعات الليبية أن لديهم خيول [11]، وهي تظهر لأول مرة في الرسوم.

ونحن نسمي رعاة " تين أنويين" بأوائل البربر الغربيون الذين قدموا من بلاد المغرب وذلك تمييزا لهم عن أوائل البربر الشرقين الذي قدموا من الشرق وهؤلاء هم الذين يظهرون في النقوش المصرية وقد مثلتهم في الطاسيلي مجموعات "إهرن" ومجموعات وان أميل، أما أوائل البربر الغربين [12] فقد مثلتهم مجموعتين: المجموعة الأولى وهي التي يظهر أفرادها عراة في المشاهد ومعظم مشاهدهم تمثل الصيد وهم إلى جانب ذلك لا يضعون ريشات على رؤوسهم، ولهم

مظهر رقيق وأنف بارز يشبهون إلى حد ما سكان منطقة "القبائل الحالية" في الجزائر، أما المجموعة الثانية فهم الرعاة من أسلوب "تين أنويين" الذين هم أكثر ارتباطا بالبربر الحاليين من مجموعات "إهرن". (اللوحة رقم 01، 03)

4-القبائل الليبية على حدود مصر

كانت مصر الغنية تستهوي القبائل الليبية التي تعرضت بلادها للجفاف عدة مرات، وقد كانت القبائل الصحراوية الأكثر تحضرا متأثرة بالجفاف أكبر من تلك التي كانت تسكن المناطق الشمالية، كما أن المصريون كانوا يشنون حملات متواصلة على البدو لإجبارهم على الابتعاد عن نهر النيل، وكما هو معروف فإن حروب القبائل الليبية مع مصر قد غطت كل التاريخ المصري منذ عهد ما قبل الأسرات والأسرات الأولى، فقد كان الملك "نعرمر" الذي يعرف بـــ " الملك العقرب" هو أول الملوك المصريين الذين قاموا بغزوات ضد الليبيين الساكنين غرب الدلتا [13].

ونشير هنا إلى أن الحروب أصبحت أكثر شراسة في عهد الأسرة التاسعة عشر حيث هزم الفرعون رمسيس الثاني حلف متكون من عدد من القبائل الليبية مع شعوب البحر [14]، واندلعت حروب أخرى في عهد الفرعون مرنبتاح بين الليبيين وحلفاءهم من شعوب البحر [15] من جهة والمصريين من جهة أخرى [16]، واستمرت الحروب بعد ذلك في عهد الأسرة العشرين فقد خاص الفرعون رمسيس الثالث معارك فاصلة مع الليبيين في سنة 1182ق.م وفي سنة 1188 ق.م [17]. وتحدثنا الوثائق المصرية عن قبيلة التمحو" التي اتجهت جنوبا نحو النوبة ثم إلى الغرب والجنوب الغربي، حيث تذكر نصوص رحلة "سنوهي" تفاصيل عن هؤلاء الأقوام وأنهم كانوا يسكنون في شمال غرب الدلتا [18]، ثم انتقلوا منها إلى الجنوب والغرب، كما تشير نصوص رحلة "حرخوف الثالثة" إلى ذلك أيضا وتحدد موقع الأرض الجديدة التي يسكنها " التمحو" غرب بلاد " يام "وهذه الأخيرة تقع جنوب غرب النوبة، إذ جاء في نصوص حرخوف: « ...وجدت رئيس" يام" قد ذهب لأرض" التمحو" ليضرب "التمحو"

في ركن السماء الغربي» [19]، وبذلك يمكن تحديد الإقليم الذي انتقل اليه "التمحو" في الصحراء الليبية وهي المناطق القريبة من الطاسيلي [20].

ويتميز "التمحو" ببشرتهم الفاتحة وعيونها الزرقاء وأن بينهم نسبة كبيرة من ذوي الشعر الأشقر [21]، والحقيقة أن اللوحات الفنية في الطاسيلي تشير إلى أن المنطقة التي سكنها أصحاب البشرة البيضاء والشعر الأشقر هي فزان والصحراء الوسطى خلال عصر الرعاة. (اللوحة رقم 01). ومن بين القبائل الليبية التي كانت تعيش غرب مصر قبيلة "الليبو" وقبيلة "المشواش" [22] وهذه القبائل كانت تحارب المصريين بشراسة في عهد الإمبراطورية الحديثة، وتصفهم الوثائق المصرية بأنهم ذوو بشرة شقراء وأنهم كانوا يضعون ريشات على رؤوسهم [23]، وهذه الخصائص نجدها تتطابق مع صور مجموعات إهرن في الطاسيلي. (اللوحة رقم 03). كما تشير الوثائق المصرية إلى أن هناك زحف قام به قوم من الجنوب في فترة تعاصر عصر الانتقال الأول في مصر وانتشروا بمحاذاة النيل شمالا وقد تخطوا في زحفهم الشلال الثاني ثم تابعوا سيرهم حتى اكتسحوا في طريقه بلاد النوبة السفلى ثم تابعوا حتى الشلال الأول، وتشير الأبحاث إلى انهم ليسوا من الزنوج [24]، مما يعني انهم من القبائل الليبية.

ب-التحركات السكانية بين الصحراء ووادي النيل

من المفترض أنه نتيجة للجفاف الذي ضرب مناطق واسعة من الشرق الأدنى والصحراء فإن مجموعات كبيرة كانت تتجه نحو وادي النيل وهو ما أدى إلى حدوث ضغط بشري كبير، وفي ذلك الوقت وجدت المجموعات الضعيفة نفسها مجبرة على الانتقال إلى الصحراء تحت ضغط الهجرات القادمة من الشرق، وفي ذلك الوقت كانت الصحراء مناسبة للحياة الرعوية ولكن بشكل أقل عما كانت عليه في مرحلة الرعاة الوسطى والقديمة.

ونشير هنا إلى وجود تحركات بشرية بين الصحراء الوسطى ووادي النيل وكان محور الانتقال هو وادي "هوي" في السودان ومنطقة النوبة في جنوب مصر، ومن الدلائل القوية على وجود اتصال حضاري بين مصر والصحراء الوسطى أن هناك تشابه واضح بين صور

الأشخاص في مشاهد الطاسيلي مع الصور التي تمثل المجموعة "س" في النوبة من خلال الملامح الفيزيولوجية، مع العلم أن المقابر التي عثر عليها في مدينة "هيراكنوبوليس" التي تقع اليوم في الجهة الغربية للنيل في صعيد مصر شمال "إدفو" هي لأناس من أصول ليبية [25]. ومن جهة أخرى فإن هناك دلائل قوية على حدوث تلاقٍ حضاري بين مصر والصحراء الوسطى، فصور الفن الصخري في "جبل العوينات" وفي الجلف الكبير في أقصى جنوب غرب مصر وكذلك في بعض الواحات الغربية المصرية مشابهة لصور مرحلة ذوي الرؤوس المستديرة ومرحلة البقريات في الطاسيلي، مما يعني أن المجموعات نفسها التي سكنت الصحراء قد انتقلت إلى مصر في فترات مختلفة من العصر الحجري الحديث [26].

وقد أشار هنري لوت إلى أن رعاة الأغنام الذين وجدت رسومهم في ملجأ " تين راردس" (Ti -n-Rhardès) بالطاسيلي لهم علاقة وثيقة بالمجموعات التي كانت تعيش غرب مصر في نهاية عهد الدولة القديمة [27]، مع العلم أن الرسوم التي تحدث عليها هنري لوت تنتمي إلى أسلوب مجموعات إهرن". ويبدو أن هناك قرابة واضحة بين مجموعات "إهرن" ومجموعات"وان أميل" مع الليبيين الذين تظهر صورهم في المعابد المصرية، ماعدا المجموعات التي ظهرت صورها في ملجأ " تين أنويين" في ليبيا الذين يشبهون الليبيين الغربيين أكثر [28].

ج-التحركات السكانية بين بلاد المغرب والصحراء

يمكن بسهولة التعرف على ملامح الأشخاص في الفن الصخري فالكثير من الصور التي تعود للمرحلة الرعوية الحديثة هي أقرب ما تكون إلى البربر في شمال إفريقيا، أما الزنوج أو السود فصورهم التي تعود إلى هذه الفترة قليلة جدا، ويحتمل أنهم كانوا متواجدين في الهوڨار أكثر من الطاسيلي، وهم في الغالب من الزنوج القدامى الذين التجئوا إلى المناطق التي كانت لا تزال رطبة، فمن المستبعد أن تأتي مجموعات جديدة من الزنوج إلى المنطقة، نظرا لأن المناطق التي من المفترض أن يهاجر منها الزنوج كالصحراء الجنوبية وجنوب وادي النيل كانت أكثر ملائمة من مناخ الصحراء الوسطى. ومما يدل على وجود انتقال بشري بين بلاد المغرب

والصحراء هو انتشار استئناس الأغنام فالأغنام المستأنسة مصدرها بلاد المغرب فقد وُجدت أغنام في الموقع القفصي النهائي بهوافتيح في الجبل الأخضر الليبي في زمن يقدر ب 5850 ق.م [29]، أما في كهف كابيلوتي (capéletti)في الأوراس فقد أرخت الباحثة كوليت روبي(Colette Roubet) بقايا الأغنام فيه بحوالي 4830 ق.م [30]، ونظرا لوجود تواريخ قديمة للأغنام في بلاد المغرب فإن هناك احتمال أن رعاة الأغنام قد انحدروا إلى الجنوب من بلاد المغرب.

ومن جهة ثانية عندما تحسن المناخ واختفت الغابات من منطقة الهضاب العليا توسعت الحياة الرعوية في شمال افريقيا، وأصبح الرعاة ينتقلون بمواشيهم بين الشمال والجنوب حسب المواسم وهذا الأمر استمر إلى فترة العصور القديمة، فقد ذكر هيرودوت أن "النسامون" وهي قبيلة ليبية كانت تسكن في الجنوب كان أفرادها يتركون قطعانهم قرب الساحل في الصيف ويذهبون إلى "أوجلة" في الجنوب ليجمعوا التمر من أشجار النخيل [31]. ومن خلال ما سبق يمكن القول بوجود هجرات لأوائل البربر نحو الصحراء، وهذه الهجرة تكون قد انطلقت من فزان أو من الأطلس الصحراوي عبر الصحراء الشمالية حيث أظهرت المشاهد وجود مجموعات بيضاء ذات أصول مختلفة في الطاسيلي، وبالعودة إلى المعطيات المناخية والبيئية في شمال إفريقيا في ذلك الوقت، نلاحظ أنه قد حدث تراجع كبير للغابات في الأطلس الصحراوي، ونشير هنا إلى أن المرحلة الرعوية الحديثة تزامنت مع المرحلة المناخية الأوربية التي تسمى شبه البوريال، والتي امتدت بين 2500 و600 ق.م، وكان فيها المناخ رطباً في شمال إفريقيا [32].

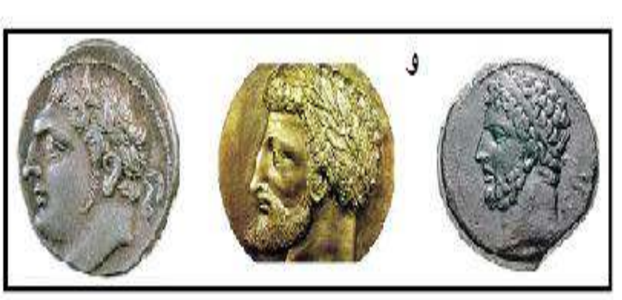
وذلك يعني أن الاتصال بين بلاد المغرب والصحراء أصبح يسيراً، لذلك فإننا نفترض أنه في هذه الفترة حدث انتقال سكاني كبير بين الشمال والجنوب أكثر من الأوقات السابقة، وربما توغل العرق الأبيض باتجاه الجنوب أكثر، فقد لوحظ أن هيكل عظمي مدفون في إحدى القبور في النيجر هو اقرب ما يكون إلى الليبيين البربر أكثر من السود النيليين [33]، كما أن المئات من القبور التي عثر عليها في الصحراء الوسطى تعود لمجموعات ليبية، خاصة نوع من

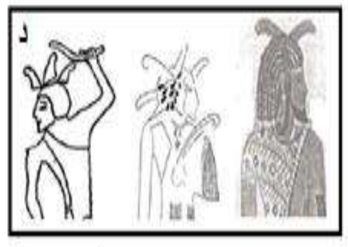
القبور يعرف ب" القبور ذات الممرات والسور"، وهي قبور معقدة تتكون من جثوة تغطي الحفرة، وترتبط هذه الجثوة بزائدتين موجهتان نحو الشرق في شكل مؤشر)، وتتصل بسور ممتد بممر يتجه نحو الشرق كما يوجد سور ثان يحيط بالقبر [34].

وتبعا للإطار الزمني لتلك القبور فهي تعود إلى إحدى المجموعات البيضاء كمجموعات وان أميل أو مجموعات إهرن وتين أنوين وربما إلى مجموعات ليبية أخرى، وغالبا ما تكون مجموعات إهرن هي الأقرب إلى أن تكون تلك القبور لها، لأنها تتواجد في نفس المناطق التي انتشر فيها أسلوب اهرن [35]. وفي الأخير يمكن القول بأن العرق الأبيض قد تواجد في الصحراء الوسطى في المرحلة الرعوية الحديثة واستقر في المنطقة مدة طويلة فترك فيها آثاره الفنية على جدران الملاجئ الصخرية، وأن نسبة كبيرة من هؤلاء هم من أوائل البربر الذين قدموا في الشرق أولا ثم من بلاد المغرب لاحقا، أما الزنوج والسود الذين بقوا هناك فقد استعبدوا أو تعرضوا للمطاردة، وفي ذلك الوقت كانت الظروف المناخية في الصحراء مناسبة لكنها أقل رطوبة مما كانت عليه في السابق، لكن الصحراء كانت تتجه للجفاف تدريجيا.

وبعد تزايد وتيرة الجفاف هُجرت مناطق واسعة من الصحراء خاصة تلك التي تشغلها العروق الرملية اليوم، وانتقلت مجموعات من الرعاة شمالا وشرقا وجنوبا، وتركزت بقيتهم في قيعان الأودية الرطبة وفي المناطق الجبلية من الطاسيلي والهوقار، وبعد أن تسارعت وتيرة الجفاف في الألف الأولى قبل الميلاد، انحصر الناس في بعض المناطق وتركزوا قرب مصادر المياه القليلة المتبقية وهو ما أدى إلى ظهور الواحات الصحراوية المعروفة اليوم وبذلك تكرست الصحراء التي أصبحت تنتمي إلى شمال إفريقيا عرقيا وثقافيا.





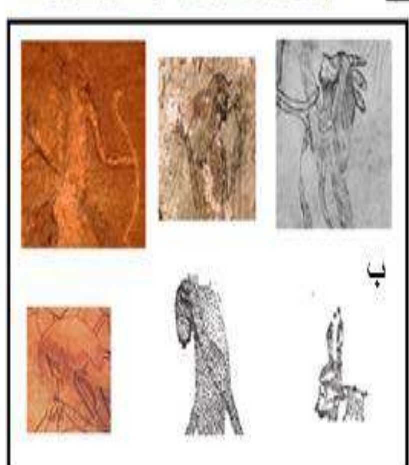






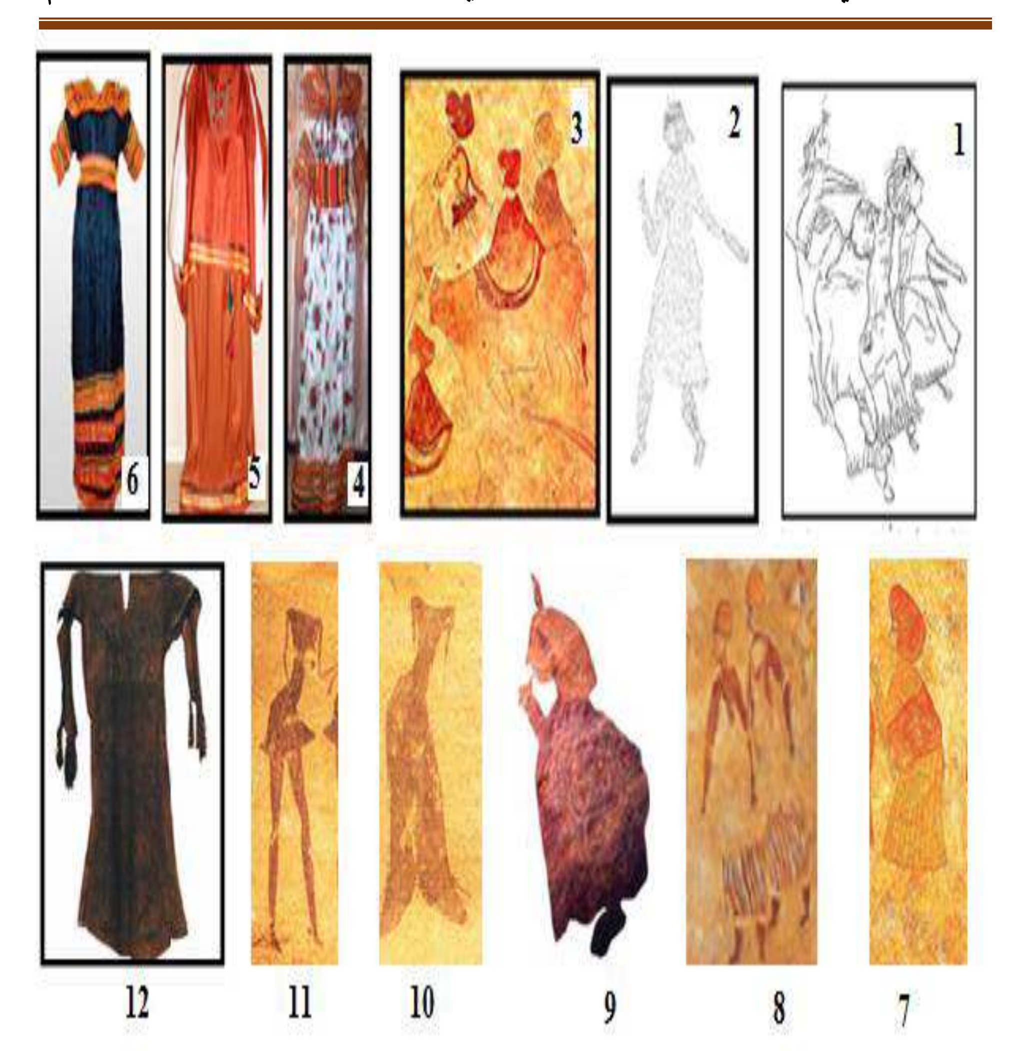






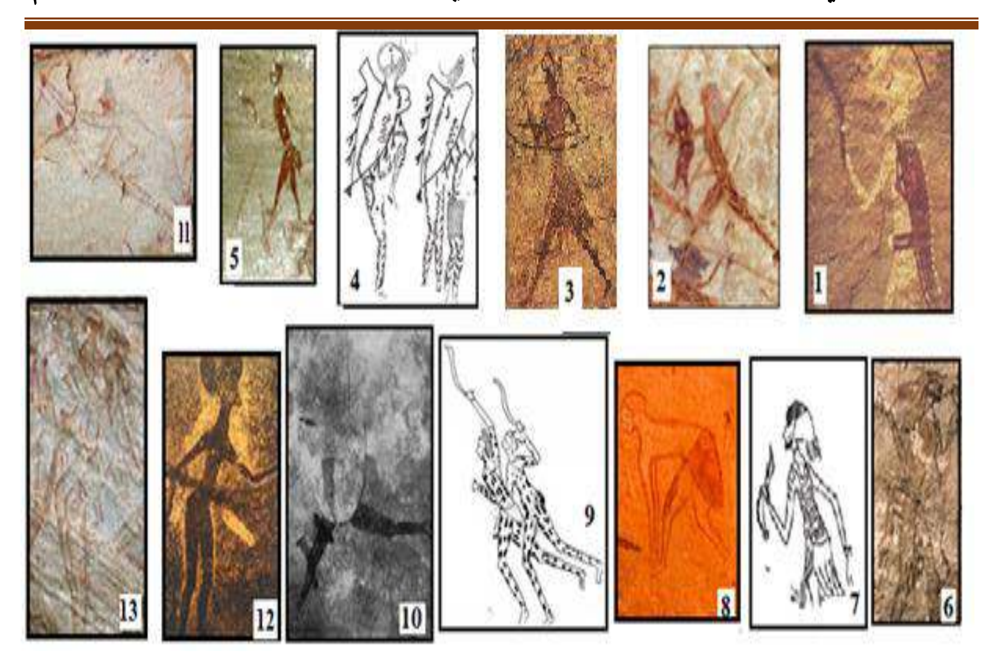
اللوحة رقم 01:

مقارنة بين أشخاص من البقريات الحديثة (أ، ب)، مع صور الليبيين (ج) صورة المرأة التي في الأعلى من مقبرة "خنوم حتب" في بني حسن بمصر، (د) أمراء ليبيون في المعابد المصرية، (هـ) صور شعوب البحر، (و) صور لملوك نوميديا.



اللوحة رقم 02:

مقارنة بين لباس النساء في البقريات الحديثة (1، 2، 3، 7، 8، 9)، ولباس مجموعات الحصان (10، 11) مع اللباس الحالي للبربر (4، 5، 6، 12)



اللوحة رقم 03:

محاربين ورعاة من مختلف المجموعات في البقريات الحديثة في الصحراء

1-رعاة تين أنويين، 2-محاربين من جنس شبيه بإهرن يحاربون بالرماح، 3-محاربين ليبين، 4-محاربين من قبائل ليبية أخرى لهم دروع من جلد الحيوانات، 5-راعي من قبائل ليبية، 6-راعي غنم من مجموعات إهرن، 7-محارب من إهرن 9-أحد رعاة الأبقار والمزارعين من مجموعات إهرن، 9-محاربين من قبائل ليبية أخرى، 10-محاربين زنوج من البقريات الحديثة يرتدون الدروع ،11-رامي سهام من مجموعات بيضاء يظهرون عراة، 12-أحد الرعاة من مرتوتك في الهوقار، 13-مجموعات ملجأ إسالامان البيضاء.

الهوامش:

(1) Mary Anne Tafuri et al .,2006, op.cit.p 390.

(2) Barbara Barich., 1987, op.cit. pp331-340.

(3) Malika Hachid ., 1998, op.cit. p167-168.

(4) Mohamedo. S. Bathily, Mohamade Ould Khatta, Robert Vernet ., 1998, Les sites néolithique de khatt lemeiteg (amatlich) en maurittanie occidentale, centre culturel, français de nouakchott, promière édition CMA UPR , 311, p6.

(5) Robert Vernet., 2007,op.cit ,p89.

(6) هناك أهمية كبيرة للحى في الحفلات المصرية القديمة فهي خاصة بالآلهة حيث تظهر في النقوش اللحى الطويلة منذ الإمبراطورية القديمة كرمز للآلهة، وحتى فيما قبل التاريخ كان للحى أهمية وهذا ما نلمسه في تمثال لشخصيات ملتحية في حضارة نقادة الأولى Nagada1، ينظر:

Jean-Loïc Le Quellec., 2001, Les arts graphiques …, p 167.

(7) Fabrizio Mori., 1970 ,op.cit. p356.

(8) Yves & Christine Gauthier., 2006, op.cit,, P96, Jean-Loïc Le Quellec ., 2013, Périodisation …, P3.

(9) Jean-Loïc Le Quellec., 2013, Périodisation…, P12.

(10) Hérodote , IV, 175,191.

(11) لم يتم تحديد الفترة التي تواجدت فيها الخيول في بلاد المغرب بشكل دقيق، فقد كان يُعتقد في السابق أن الخيول دخلت إلى المنطقة منذ 1500 ق.م، لكن مع اكتشاف بقايا لخيول برية تعود إلى 40 ألف سنة في مواقع ساحلية في الجزائر مما يعني أن هذا الحيوان كان موجودا في هيئته البرية منذ زمن بعيد، وقد ذكرت الباحثة جينات أوماسب أن هذا الحيوان بدأ في الظهور في الفن الصخري في الأطلس الصحراوي بين 20ألف و15 ألف ق.م في مشاهد موقع "الحصباية "وبشكل متأخر قليل في موقع "حجرة إدريس" وموقع "الغارة الحمراء" بالأطلس الصحراوي، أما الخيول المستأنسة الموجودة في شمال إفريقيا اليوم فهي تنتمي إلى نوعين رئيسين هما: النوع الملتحي وهو النوع الأصلي، والنوع العربي وهو حديث نسبيا ، أما أول ظهور للخيول المستأنسة في نقوش الأطلس الصحراوي فقد كان في 2000 ق.م وفي الطاسيلي والهوقار بين 2000 و 1500 ق.م، وأصول هذه الخيول المستأنسة هي شرقية في الغالب، ولعلها قدمت من منطقتين رئيسيتين: منطقة "دنقلة" بالسودان، أو "دلتا النيل" وذلك بعد أن أدخلت من غرب آسيا من طرف الهكسوس الذين غزو مصر والذين كانوا من راكبي الخيول، ينظر:

Ginette Aumassip & A. Kadri ., 2002 , Propos sur le cheval de la steppe algérienne, Les Cahiers de l'AARS,7, pp 29-35 , David J. Gibson., 2010, op.cit, p11.

(12) نجد في الغالب جنسين في بلاد المغرب ففي نهاية العصر الحجري القديم كان هناك الايبرومغربيون الذين يعرفون أيضا بالمشتاويين وقد سكنوا السواحل و لم يمتدوا كثيرا في الداخل ، وهناك القفصيون الذين كان امتداهم داخليا وصحراوي ، وبعد ذلك ظهرت أجناس في نهاية العصر الحجري الحديث في الشرق والغرب وهم اوائل البربر

الغربين والشرقيين الذين أشرنا اليهم ، ثم في العصور القديمة حدثنا هيرودوت عن مجموعتين من الليبيين تفصل بينهم بحيرة تريتون، وفي العصور الوسطى ظهر البرانس والبتر، وتستمر ثنائية العرق إلى اليوم في المنطقة .

(13) J. Vandier.,1952 , Manuel d'archéologie égyptienne I ,les époques de formation ,la préhistoire – les trois premières dynasties, Picard édition. Paris, p603.

(14) G. Maspero., 1897, Histoire Ancienne Des Peuples De L'Orient Classique » Les Premières Mêlées Des Peuples » ; Hachette, Paris. pp262-266.

(15) يقصد بشعوب البحر مجموعة من الشعوب أبحرت من المناطق الإيجية كمنطقة البلقان واتجهت نحو آسيا الصغرى وساحل شمال إفريقيا، وانتشروا في إقليم الدلتا شمال مصر، وقد ذكرت النقوش المصرية أسماء بعض هذه الشعوب مثل: "البلست" و"الاخانيون"kws و"لوكا" rk و"الشردن" srdn"وتورشا" tkr و"الشكلشskls" و"الدنون" dnwn، ينظر: محمد العلامي، 2012، الزي العسكري لرجال لشعوب البحر في الرسومات المصرية، مجلة جامعة القدس المفتوحة للأبحاث والدراسات، العدد الثامن والعشرون، تشرين الأول أكتوبر 2012، ص356.

(16) P .H. Vandenbreg., 1979, Ramsses II, Traduit De L'allemand Par Jean Marie Gaillard Paquet, Paris: Pierre Bellond, P292.

(17) A. Nibbi .,1982 , The Chief Obstacle To Understanding The Wars Of Ramsses III, GM59, P51-60.

(18) أحمد فخري،1962، الأدب المصري القديم، المجلد الأول، العصر الفرعوني، مكتبة النهضة العربية، القاهرة، ص383-390.

(19) للمزيد من التفاصيل حول رحلات "حرخوف"، ينظر: سليم حسن، 2001، تاريخ السودان المقارن إلى أوائل عهد "بيعنجي"، القاهرة: الهيئة المصرية للكتاب، ص24-52.

(20) Bates, O., 1914, The eastern Libyans, London: Mac Millan And Co Limites, p46.

(21) Hölscher, Op Cit , P. 24.

(22) هي قبيلة ليبية عظيمة كانت تسكن غرب مصر، ومن الممكن أنها كانت تتزعم اتحادا قبليا أو مملكة، وقد تميزت هذه القبيلة بشراستها فقد شكلت خطرا كبيرا على مصر في عهد فرعنتها العظام من سلالة "الرعامسة" في الأسرة 19 و20، وقد تمكن زعيمها "شيشنق" من الاستلاء على الحكم في مصر وأسس أسرة حاكمة، أنظر:

J. Wilson ., 1935, The Libyans And The End Of The Egyptian Empire , Ajsl.1935, 51 , P75, O. Bates., 1914, op.cit, pp 42-43.

(23) O Bates., 1914, op.cit, pp39.

(24) Steindorff, Aniba, serie1, Glückstadt-Hamburg, 1935, P6-8.

(25) Renee Friedman., 2001, Nubian Hierakonpolis, Excavations in the Nubian Cemeteries ,"Nubia and Sudan ,Bulletin of the Sudan Archaeological Research Society, №5 ,London .2001 ,pp29 – 45.

(26) Jean Loic Le Quellec.,2007, Ni Hommes…, pp 67-68, Yves Gauthier.,2007 , Sous Zone 4 :Libye - Égypte - Nord du Soudan، ICOMOS , 2007,p108.

(27) Henri Lhote., 1973, op.cit, pp209-210.

(28) من المفترض أن الليبيون لم يكونوا جنسا واحدا بل كانوا أجناس من أصول مختلفة، ومن المرجح بالنسبة لنا أن القبائل الليبية الصحراوية مثل مجموعات إهرن ومجموعات وان أميل والمجموعات الليبية التي كانت تحارب مصر مختلفة عن المجموعات التي عاشت في الجزائر والمغرب الأقصى في ذلك الوقت، وهيرودوت نفسه أكد ذلك من خلال وصفه للكثير من القبائل الليبية التي تسكن غرب بحيرة" تريتون" وشرقها، ينظر:

.180, 185, 191 , 194, 195 Hérodote, IV.

(29) Angela Close., 2002, op.cit. 469.

(30) Colette Roubet., 2003, des communautés atlasiques, Néolithisées du Maghreb oriental, dès 7000 BP, L'anthropologie 107, p395.

(31) Hérodote., IV, 172.

(32) S. Stambouli-Essassi, E. Roche & S. Bouzid., 2007, op.cit, pp 171-172.

(33) Yves & Christine Gauthier. , 2006, … p79-80.

(34) Fronçois paris., 1997,op.cit, 138.

(35) Ibid, p80.